٧ ـ الاسلام والفنون الجميلة

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

رأينا كيف كان لبعض توجيهات الدين الإسلامى سواء ما كان منها إيجابياً أو سلبياً أثر واضح فى إيجاد شخصية قوية للفنون الجميلة التى كان يزاولها المسلمون . على أن هناك عوامل أخرى تستمد أصولها من الدين الإسلامى قد تبدو لأول وهلة كأنها منقطعة الصلة بالفن ولكنها فى الحقيقة ذات صلة بهذا الأمر ، صله غـــير مباشرة إلا أنها فعالة قوية الأثر نرى من الحق علينا أن نشير إليها وأن نبين كيف عاونت على نضوج الفن الإســلامى وساعدت على اطراد تقــدمه . ولعل أهم هذه العوامل المســاعدة ثلاثة : النقابات الإسلامية ، والحسبة ، والوقف . وسنبين أولاً ما هى هذه النظم ثم نعقب على ذلك بإيضاح أثرها فى الفنون الجميلة

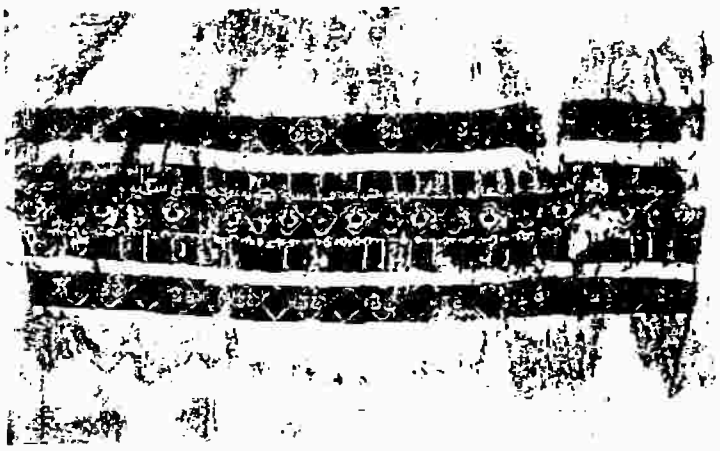

قطعة نسيج من الكتان منسوج فيها أشرطة من الحرير ، بها زخارف وكتابة كوفية تتضمن اسم الخليفة الفاطمى المستنصر بالله — من كتاب الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية « لمحمد عبد العزيز مرزوق » . (راجع العــدد ٥٣٨)

أما نظام النقابات فلا يعنينا هنا البحث فى أصله أو ترجيح أحد الرأيين اللذين يحاولان الكشف عن ذلك ، فسواء أكان يرجع فى أصله إلى النقابات البيزنطية التى كانت موجودة قبل الإسلام ، أو كان من ابتداع الفرق الدينية الإسلامية كالإسماعيلية وغيرها ؛ فالأمر الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن هذا النظام إزدهر وارتقى فى ظل الإسلام ، وساهم بأوفر نصيب فى تقدم الصناعة ، إذ كان لكل حرفة نقابة خاصة يرأسها شيخ الصنعة ويليه النقيب ثم الأساتذة ثم الأسطوات ثم المبتدئون . وكانت أسرار الصناعة تدرس عملياً فى هذه النقابات وكان لها قانون يستمد سلطته من الحكومة فى كثير من الأحيان ويدور حول حماية المستهلك والمنتج على السواء ، فيضمن للأول جودة المصنوع وإتقان الصناعة وإتباع الأساليب المقررة فيها ، ويضرب بيد من حديد على الغش والتدليس ، ويضمن للثانى سهولة الحصول على المواد اللازمة لصناعته ، ويمنع الاحتكار الذى يضر بالعمل ويسعى لرفع مستواه الاجتماعى . ولقد قضى على نظام النقابات بعد أن تغيرت الأسس الاقتصادية التى تسير عليها الأمم الإسلامية فى الوقت الحاضر . على أنه لم تزل هناك ظاهرة اجتماعية تذكرنا به هى حفلة إثبات رؤية هلال شهر رمضان إذ تسير نقابات الحرف المختلفة فى موكب الرؤية بنظام خاص . ولعل هذه الصورة أوضح فى الأرياف منها فى القاهرة

وأما الحسبة فوظيفة أوجدها الإسلام عند ما رأى أن الإنسان لا غنى له فى حياته عن التعاون مع غيره ، وأدرك أنه لكى يستقيم أمر الجماعة لا بد من إيجاد سلطة تلزم كل إنسان حده ، ولا تترك مجالاً لمن طبعت نفسه على الشر أن يعبث بمصالح الناس إرضاء لشهوة جامحة أو نزوة طارئة . وقد استمدت وجودها من آيات قرآنية عديدة نجدها مفصلة فى كتب الفقه الإسلامي أو الكتب التى قصرت نفسها على موضوع الحسبة وحده . ويكفى أن نذكر هنا أن أول من أوجدها هو الخليفة الثانى عمر بن الخطاب المحتسب الأول الذى كان أول من شارف بنفسه الأسواق وراقب المكاييل والموازين وأمر بإماطة الأذى عن الطرق . على أن أعمال الحسبة لم تقف عند هذا الحد الذى وقف عنده عمر ، بل اتسعت دائرتها حتى شملت جميع ما يتصل بحياة الناس المدنية والدينية من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر . ويهمنا نحن بنوع خاص أنها تدخلت فى شئون

جميع الصناعات ورسمت لأربابها السبيل السوى الذى ينبغى عليهم أن يسلكوه ؛ فالخزّاف والنساج والنجار والحائك والوراق والصائغ وغير هؤلاء من الصناع لهم منهاج عليهم أن يتبعوه حتى لا يأمنوا عقاب المحتسب فى الدنيا وغضب الله فى الآخرة . وقوام ما هم مكلفون به إتقان العمل والإخلاص فيه وتجنب الغش والتدليس .

مشكاة من الزجاج المزخرف بالمينا عملت باسم وقف الأمير إلماس وعليها اسم الصانع — من فهرس مقتنيات دار الآثار العربية للمرحوم هرتس بك

وأما الوقف فنظام نشأ فى الإسلام استناداً إلى أحاديث عدة لعل أشهرها ذلك الحديث الذى ذكره البخارى ومسلم فى صحيحيهما كما ذكر أيضاً فى سنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وفى مسند ابن حنبل وفى طبقات ابن سعد وملخصه

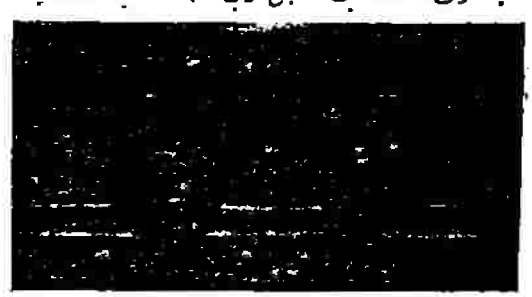

قطعة من تابوت خشب لأم السلطان الأيوبي (الكامل) — من فهرس مقتنيات دار الآثار العربية للمرحوم هرتس بك

أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخيبر فأتى النبي صلوات عليه يستأمره فيها ، فقال له النبي إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها . ومنذ عهد عمر ونظام الوقف مستمر حتى يومنا هذا وقد اتسعت أغراضه بحيث شملت معظم نواحى الإصلاح الاجتماعى فأوقفت الأعيان على المساجد والمدارس ، والمارستانات والمدافن ، وعلى المساكين واليتامى ، وعلى الذين وهبوا حياتهم للعلم أو للدين ، وعلى غير ذلك من الأغراض التى صورها الواقفون فى وقفياتهم ويضيق المجال عن ذكرها جميعاً . والذى يهمنا من هذا

محراب من خشب عمل برسم مشهد السيدة رقية بأمر زوجة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله — من رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية للمرحوم الأستاذ حسن الهوارى

النظام أن أول قواعده وأهمها عمارة الأعيان المحبوسة سواء ما كان منها لاستخدامه فى الأغراض سالفة الذكر أو لاستغلاله

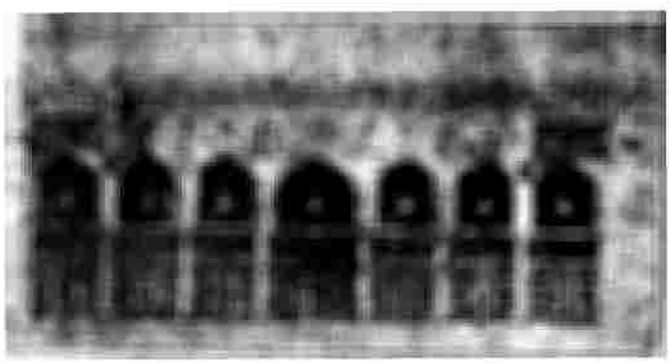

واجهة ديوان المحراب فى مسجد الصالح طلائع بن رزيك الوزير الفاطمى نقلا من كتاب مساجد القاهرة قبل عهد المماليك لمحمد عبد العزيز مرزوق

للانفاق عليها لضمان بقائها ودوام استغلال ريعها . وبفضل هذا العمل الجليل وصلت إلينا تلك الآثار الرائعة التى تزدان بها القاهرة اليوم من مساجد ومدافن ، وأسبلة وأربطة ، ومدارس ومنازل ومشاهد ووكائل ، وتلك التحف النادرة الجميلة التى كانت تزين تلك الأبنية من محاريب وتوابيت ومشكوات وكراسى .

(يتبع)

عبد العزيز مرزوق